حين يرفض السوريون المذلة
الكاتب : وائل مرزا
التاريخ : ٣ أكتوبر ٢٠١١ م
المشاهدات : 3908

في مقالٍ كتبه منذ أسابيع عن (الإضافة السورية)، لفت الزميل "إلياس الخوري" الانتباه إلى أن التونسيين والمصريين التقطوا الشعار السياسي من خلال الهتافات التي أطلقوها في ثوراتهم. أما السوريون كما قال: "فإنهم صاغوا الشعار الأخلاقي للثورات التي تجتاح العالم العربي". فهذه الثورة هي في جوهرها ثورة خلاقية، إنها دعوة إلى استعادة الكرامة الفردية والجماعية... الشعب السوري أبدع العبارة الأساسية، ورفع شعار مقاومة الذلّ، وهو بهذا رسم للأفق العربي الجديد معناه. أهل درعا صرخوا في مظاهرتهم (الشعب السوري مش جوعان)، حتى لو جاع الناس، فان كراماتهم هي المسألة اليوم، وشعورهم بأن سيف القمع وحكم قانون الطوارئ ومناخات الترهيب فقدت شرعيتها. عندما يعلن شعب رفضه للذلّ، فانه يطرح سؤال الشرعية. ما لا تستطيع الأنظمة الحاكمة منذ أربعة عقود استيعابه هو أن الانقلاب العسكري وحكم الحزب الواحد والاستبداد باسم الشعارات القومية فقدت شرعيتها التاريخية، وصار تداعيها مسألة وقت لا أكثر. لم يعد هناك من يستطيع إنقاذها من مصيرها المحتوم".

جاء هذا تعليقاً على هتافات يرددها السوريون اليوم في كل مكان وهم يطالبون بحريتهم وكرامتهم من مثل: "الموت ولا المذلّة"، و"الشعب السوري ما بينذلّ"، و"الشعب السوري ما بينهان". لا نعتقد أن ثمة حاجة لذكر معنى الكلمات بالعربية الفصحى فهي واضحةٌ كالشمس ولا تحتاج إلى مزيد بيان.

التقط مقالُ الزميل ببراعة النقطة الأساسية في ذاكرةٍ تاريخية للشعب السوري يشهدُ بها تاريخه الطويل. والذي رآه الملايين من المشاهدين العرب في أعمال درامية معروفة في السنوات الأخيرة عن قيم العزة والرجولة والكرامة لم يكن نوعاً من فانتازيا تاريخية خيالية لا أصل لها ولا وجود.

هكذا تستعيد الشعوب رصيدها الأخلاقي السامي في لحظاتٍ تاريخية تسوق الأقدار ظروفها المناسبة.

صبرَ الشعب السوري عقوداً طويلة حين قيل له: أن ثمن صبره هو التحرير. عانى وقاسى المرارات حين أقنعوه بأن فلسطين هي القطب الذي تشير إليه بوصلة المسيرة، وأن المسيرة المذكورة تتطلب التضحية بالكثير، ليس فقط فيما يتعلق بلقمة عيشه وخبزه اليومي، وإنما أيضاً بحريته التي يمكن أن تؤدي إلى الفوضى وتشويش مسيرة التحرير الكبير.

صبر الشعب طويلاً حين حدّثوه عن (ثورة) ستأتي بالتنمية والتقدم والازدهار. ثورة تمحو التخلف والرجعية، وتحارب المرض والجهل والفقر. تُشعر الإنسان بِعزّتِهِ وتعيد له كرامته المفقودة، تهزم التبعية والانكسار، وتُوفّر للوطن أسباب القوة والمنعة.

ذكروا للشعب الصابر أن الثورة ستأتي بالتحرير، وما إن يأتي التحرير حتى يأتي معه الرخاء بعد عناء المقاومة الطويل المرير، يأتي الرخاء والتنمية فيضمن للسوري رغيف الخبز، ويضمن له قبله قيم الحرية والعدالة والكرامة والمشاركة وسيادة القانون.

مرّت الشهور ومعها السنوات والعقود، فلم يسمع الشعب إلا الوعود، ولم يرَ إلا الاحتفالات بثورةٍ كلاميّة لا يرى لإنجازاتها أثراً على أرض الواقع.

وكما ذكرنا من قبل؛ كان أهم شيء أن توضع تقاليد الاحتفالات، تُعطّلُ الوزارات والإدارات والمدارس والجامعات، تخرج التظاهرات والمسيرات (العفوية) منها و.. (غير العفوية)، تمتلئ أرجاء البلاد بالاحتفالات والمهرجانات، تستنفر الصحف والمجلات والإذاعات وقنوات التلفزة، يخرج الخطباء المفوّهون إلى منابرهم، ويدبّج الكتّابُ الكبار مقالاتهم، ويصدح المُغنّون بأصواتهم.

لكن السنوات باتت تمرّ.. ينقضي احتفالٌ ويأتي احتفال.. والناس تنتظر.. يمضي عامٌ ويُقبلُ عام.. والوطن ينتظر.

طال زمن الانتظار السوري على رصيف التاريخ، لم يتحرك قطارُ التنمية، ولا سَارَت عربةُ التقدم، ولا بدت ملامحُ مركبة الازدهار.

ظهرت مسمياتٌ دون مضمون، وبُنيت هياكل كان يملؤها أولاً الفراغُ والضباب، ثم صار يحشوها الفساد والزيف والمحسوبية والنفاق.

وبدأت الشعارات تتوالدُ وترتفع شيئاً فشيئاً حتى حجبت نور الشمس بغلالةٍ سوداء.. كثُرَ الكلام وقلّ العمل.. حتى لم يعد السوري يسمعُ ويُبصر ويأكلُ غير البيانات.

رأى السوريون هذا فأمسكوا قلوبهم بأيديهم المرتعشة خوفاً من القادم المجهول، وكان حدسُهم كالعادة صحيحاً.

لم تمض برهةٌ من الزمن إلا والتخلف والرجعية يعودان معزّزَين مكرّمَين في أثواب جديدة،

تتالت الشهور والسنوات وبقي المرض والفقر والجهل ضيوفاً لا يفارقون أرضهم، لكن ثالثة الأثافي كانت تتمثل فيما حلّ بالكرامة، كرامة السوري داخل وطنه وخارجه، لأنه استيقظ ذات صباح ولم يجدها، بحث عنها طويلاً لكنها كانت قد ضاعت، وضاعت معها في زحمة الشعارات وزحمة الكلام وزحمة البيانات الحريةُ والعدالةُ والمشاركةُ والكرامة وسيادةُ القانون، حتى رغيف الخبز ضاع، وكأن كل هذا لم يكن كافياً لذلك الإنسان.

قيل له: أن ما ضاع ضاع ثمناً لرفض التبعيّة، وفداءً للتحرير، وتضحيةً على مذبح الاستقلال! ولم يبق إلا الذلُّ في النهاية.. سيداً في كل الميادين.

لهذا ليس غريباً أن يقول الزميل "الخوري" في مقاله المذكور: "أن تنطلق كلمة الذلّ من الحناجر، فهذا دليل على أن الناس تصرخ من أعماق الألم. كلمة ذلّ هي أشدّ الكلمات وحشية والتباساً، إلى درجة أن ابن منظور لم يجد مرادفاً لها في ـلسان العربـ، ففسرها بنقيضها: (الذلّ نقيض العزّ... والذلّ: الخِسة، وتذلل: أي خضع). لم يجد ابن منظور في نفسه القدرة على شرح كلمة خسيسة إلا عبر نقيضها. فالإذلال يجمع الإخضاع إلى الهوان، ويتضمن امتهان الكرامة، ويقود إلى الشعور بفقدان الهوية الإنسانية".

قد يكون الصبر فضيلة وجزءاً من الحكمة، وقد أظهر الشعب السوري حكمةً كبرى حين أصرّ على سلمية انتفاضته ووحدته الوطنية. من أجل هذا نؤكد على ما ختم به الزميل مقاله حين قال: "الحكمة لا تعني الاستسلام، وهذا ما أثبتته دوما ودمشق وحمص وبانياس والقامشلي واللاذقية ودرعا. رسمت الحكمة خطّها الأحمر الذي تجسده كلمتان: الحرية ورفض الذل. هذا الخط تلّون بدماء الشهداء، ولن يكون في مقدورٍ أحد أن يتجاوزه بعد اليوم".

المصدر: مجلة الرائد.

المصادر: